بسم الله الرحمن الرحيم

التباين المكاني والزماني : الأسباب والنتائج

1- المقدمة:

لقد خلق الباري عز وجل كل شيء بقدر ليوفر ظروف الحياة التي نعيشها على هذا الكوكب الصغير ، لقد أوجد مسببات الحياة ، وشروط اختلاف الاقوام و الشعوب عن بعضها البعض ، و ظروف الاختبار الدنيوي في النعيم و الشدة . ولقد منح الرب الانسان عقلاً ليستثمر مكنونات الارض و يتكيف مع التبدلات التي تحصل في البيئة المحيطة به ، و ليسيطر على غرائزه و رغباته و يتدبر أمور دنياه و آخرته . لذا ، لا تتوزع الظواهر الطبيعية والبشرية بشكل متوازن على سطح البسيطة ، وهذه من روائع الخلق و قدرة الخالق سبحانه و تعالى و بديع صنعه . انها سنة الحياة في الأرض ومن أسرارها.

2- عوامل التباين:

لنتصور أن الأرض مسطحة (كما اعتقدها القدماء) ، أو انها كرة ملساء ككرة البلياردو ، أو ان محورها عمودي على مدارها حول الشمس ، أو أن مسارها هذا دائري الشكل وليس اهليلجي ، أو انها لا تدور حول نفسها ، فكيف ستكون طبيعة الحياة على سطحها ؟ هذا ليس خيال علمي ، فهكذا قد فكر الفلاسفة القدماء ، وعلى أساس هذا المنطق استدلوا على شكل الأرض و طبيعة حركاتها قبل ان ينزل الانسان على سطح القمر وقبل أن يرسل صورا فضائية للأرض . ولو لم نكن هناك جبال على سطح الأرض ، هل يمكن ان توجد بحار و محيطات ؟ أو أن توجد أرض يابسة ؟ وعلى افتراض انها غير موجودة . كيف ستتوازن الارض و تنتظم حركاتها ؟ انه ليس عيب فكري ، بل استقراء كنه الحياة و سرها على سطح الأرض .

فبسبب ميلان محور الارض و حركتيها اليومية والسنوية ، وبسبب كروية شكلها تبرز التباين الزماني (الليل والنهار ، الفصول الأربع) ، والتباين المكاني العام بين مختلف المواقع على سطح الكرة الارضية (بدء من خط الاستواء حتى القطبين) . وبسبب توزيع اليابس و الماء ، والاختلاف بين الارتفاعات عن مستوى سطح البحر تبرز التباين على المستوى الدقيق (التفصيلي ، المحلي) في الظروف الطبيعية (طقس ، تربة ، نبات) وانعكاساتها على الانسان واختلاف اجناسه و حضاراته و طرز معيشته . فالتباين بين عناصر الطبيعة

صاحبه تباين حضاري صنعه الانسان جراء تكيفه مع البيئة المحلية واستثماره لها .

ومنذ القديم عد الانسان ابن الطبيعة ومن نتاجها (الحتم الجغرافي) ، وحديثا نظر اليه كأبن غير بار بها نتيجة الاضرار التي سببها للبيئة و استثماره غير العقلاني لمواردها بسبب انسياقه وراء مصالح آنية وغرائز حب التملك و الهيمنة ، وغيرها . وبهدف توفير اجواء خاصة به اندفع الانسان في ايجاد بيئات صنعها بنفسه (المأوى ، المحلة ، المستقرة البشرية ، وغيرها) ، وقد تباينت البيئات التي صنعها الانسان نتيجة عوامل عديدة ، الانسان نفسه أساسها .

3- مستويات التباين و مقاييسه :

فالتباين المكاني حقيقة على جميع المستويات و الاصعدة ، على مستوى الكون (بيئة المريخ تختلف عن بيئة المشتري وعن بيئة الارض) ، وعلى مستوى الكرة الارضية (البيئة الاستوائية عن القطبية) و (البيئة الساحلية عن الداخلية) و (بيئة الارض المنبسطة عن الجبلية) و (بيئة الريف عن الحضر) و (بيئة مركز المدينة عن أطرافها) و (بيئة الشارع الرئيسي عن الشارع الفرعي) و (الاركان عن وسط الشارع نفسه) و (بين غرف المنزل الواحد) وحتى في الغرفة نفسها (قرب الشباك و الركن المنزوي) ، و هكذا . فالتباين مستمر من أكبر المستويات scales الى أصغرها .

وليس التباين نوعي فقط ، بل و كمي أيضا ، فالكواكب متباينة في احجامها ، في عدد توابعها ، وفي الوقت الذي تستغرقه في كل دورة من دورانها . وعلى سطح الارض تختلف النباتات الطبيعية (الناتج الحتمي عن تكامل عوامل طبيعية) ليس من حيث النوع فقط بل ومن حيث الكم أيضا (العدد و الكثافة) . وتتباين المستقرات البشرية عن بعضها بالحجم السكاني اضافة الى الاختلاف في الوظائف التي تؤديها ، وتتباين الوحدات الانتاجية في حجمها (على اختلاف معايير قياس الحجم) ، كذلك حال الوحدات السكنية التي تتباين عمرانيا في حجمها (مساحة و بناء) و تتباين في ساكنيها ، وهكذا . فالتباين في عناصر البيئة الطبيعية يقابله تباين في عناصر البيئة التي صنعها الانسان ، وكلاهما يكمل بعض (كوجهي عملة واحدة) ليكونا التباين المكاني لعناصر البيئة التي يعيش الانسان فيها و ينشط .

4- تباين أم تكامل ؟

التباين مبرر لذاته ، وهو في الوقت نفسه مبرر تكامل العناصر المتباينة ، فالحياة تكامل . الرجل والمرأة يكملان بعض ليكونا الزوج والزوجة ، وبالابناء (الجيل الجديد – تباين زمني) تكتمل الاسرة و تمتد على مساحة مكانية و زمانية أكبر ، وتتوفر ظروف البقاء و التطور . والنهار يكمله الليل ، و الصيف يكمله الشتاء ، و البحر يكمله اليابس ، والجبل يكمله الوادي ، وهكذا .

فعلى سبيل المثال لا الحصر ، تتكون الوحدة السكنية من عدد من الغرف ، والتباين داخلها واضح في مساحة الغرف و شكلها و الوظيفة التي تؤديها وكثافة استخدامها ، و مواقعها بالنسبة الى الشارع و \ او الحديقة ، وتكمل بعضها لتوفر سكنا و مستقرا للانسان تخدم شتى أغراضه و تلبي مختلف حاجاته . وقد تتباين وظائف غرف الوحدة السكنية مع الزمن نتيجة التبدل في حاجات الساكنين ، وقد يصل الأمر الى تبدل في مساحة وحجم الوحدة السكنية ، او تغيرها كليا ، وفي مكان آخر في كثير من الاحيان . فالثبات على حالة واحدة ليس من مؤشرات الحياة ، فكل شيء يتبدل و يتطور باتجاه معين لا يمكن ملاحظته الا من خلال المراقبة لفترات متباعدة نسبيا طبقا لعمره الزمني . فسهول اليوم كانت جبال في الماضي ، (أو مغطاة بالمياه) ، ومن هو في أرذل العمر اليوم كان شابا يافعا قبل عقدين او ثلاث ، وصبي اليوم هو رجل الغد ، وهكذا . فالتباين الزماني للمكان (أو الشيء) نفسه حقيقة لا مفر من قبولها والتعامل معها على هذا الأساس . و بملاحظة التباين الزمني يمكن تأشير المرحلة التي وصل اليها (الشيء) من حيث دورة حياته ، سواء أكان انسان ، نبات ، حيوان ، نهر ، جبل ، مصنع ، مبنى ، وغيرها .

وتتباين الوحدات السكنية عن بعضها في العديد من المعايير ، (تاريخ البناء ، مساحته ، عدد الغرف و المرافق الخدمية ، التنظيم الداخلي ، مادة البناء ، الموقع ، وغيرها) . كذلك يتباين ساكنوها من حيث عدد الافراد ، طبيعة الصلة بينهم ، التركيب العمري و الجنسي ، المستوى التعليمي ، المستوى الاقتصادي ، الى آخره . والوحدات السكنية ، بعد تصنيفها الى فئات على اساس المعايير المشار اليها آنفا ، تمثل مرآة تعكس مكانيا التباين في التركيب الاجتماعي – الاقتصادي للسكان ، تترجمه من التنظيم الهرمي العمودي للمجتمع الى امتداد مساحي على سطح الارض . فلكل موقع في المدينة قيمتان تقاسان بمحورين عمودي (اقتصادي اجتماعي) ، و أفقي (مكاني قياسا بمركز السوق) ، ونقطة الموقع هذه رغم انها ثابتة مكانيا الا انها متحركة زمنيا مع كل تبدل يحصل في المحورين الافقي و العمودي من حيث الطول و القياسات . فالتباين معقد تعقيد الحياة والمستوى الحضاري الذي وصله ساكني منطقة الدراسة .

ولا ترتبط حياة الانسان بالسكن لوحده ، فهناك اماكن للعمل توفيرا لمصادر الرزق و المعيشة : تجارية ، صناعية ، زراعية ، خدمية ، وكل منها يتباين ذاتيا في العديد من المعايير ، و تتباين في توزيعها المكاني طبقا لقدرتها على المنافسة للحصول على موقع يسهل الوصول اليه . وجميعها تكمل بعض ، فلا زراعة بلا تجارة ، ولا صناعة ، ولا خدمات تعليمية او صحية او غيرها ، وكل عنصر من عناصر المعيشة هذه لا تتوفر له مقومات الديمومة دون وجود خدمات النقل (عصب الحياة وشريانها) ، فتباينها فرض تكاملها ، ولا يحول هذا دون تنافسها ، بل يعززه و يزيده ضرورة وفي الوقت نفسه ضراوة . و التباين مزدوج ، الشيء مع نفسه و أقرانه زمنيا ، ومع العناصر الاخرى مكانيا . وكلا التباينين في حركة مستمرة نتيجة التنافس و التطور الحضاري ،

ولا يحدث الخلل الا عندما يستغل الانسان نفوذه و سلطته لصالح فئة دون غيرها . فالتباين و التكامل و التنافس اركان تستند عليها الحياة في حركتها الدؤبة.

5- منهجية دراسة التباين المكاني:

لا تدرس التباينات المكانية منفصلة عن بعضها ، فمثل هذه الدراسات تكون قليلة القيمة و الفائدة . عوضا عن ذلك يتم التعامل معها و تحليل تفاعلها مع بعض باعتماد المنهج النظامي System Approach . أن دراسة التباين المكاني لأي عنصر من عناصر البيئة يعني وصف توزيعه ، تحليل النمط الذي يشكله ، تحليل شبكة العلاقات بين النمط (التوزيع) و مجموعة من العوامل

Factors ، (المتغيرات Variables ، العمليات Processes) التي يعتقد بان لها دور في تشكيله و التأثير عليه ، استقاق العموميات عنه Generalization , laws ، نمذجته Modeling ، وبالتالي التنبؤ Prediction بما سيكون عليه النمط في المستقبل القريب ، عند التدخل للحد من او تعزيز أثر عامل معين على وجه الخصوص .

و رغم حداثة هذا المنهج الا انه كمنظور علمي فهو قديم ، فتقسيم العالم الى اقاليم نابع عن هذه المنظور ، كذلك عند تسمية الجغرافيا بعلم البيئة البشرية Human Ecology . فالجغرافيا هي العلم الذي يدرس بمنهج نظامي شمولي التنظيم المكاني لعناصر البيئة التي يعيش الانسان فيها و يتسط . ولما كانت عناصر البيئة (الطبيعية والبشرية) متباينة مكانيا و زمانيا ، فالجغرافيا معنية بالضرورة بالتباين المكاني و الزمني للظواهر التي تحدث على سطح الأرض .

على ضوء الفهم اعلاه للتباين المكاني و الزماني وعلاقتهما بحياة الانسان و مستقبله ، وعلاقة الجغرافيا كعلم في دراسته ، يمكن القول بان الجغرافيا هي العلم الذي يدرس التنظيم المكاني لعناصر البيئة الطبيعية والبشرية على سطح الارض والعلاقة بينها . وأن الفصل بين العناصر الطبيعية عن تلك التي صنعها الانسان لأغراض دراسية لا تهمل تفاعلاتها المتداخلة المتشابكة بل تركز عليها . وان التخصص في الجانب الطبيعي لا يعني اهمال للاهداف الانسانية لأنها الاساس في وجود العلوم بصورة عامة ، الجغرافيا على وجه الخصوص .

6- جغرافية المشكلات الاجتماعية:

بفصل مكان العمل عن السكن اتسعت المدن و ازدادت تعقيدا تركيبتها الوظيفية و انعكاسها على استعمالات الارض فيها ، وكذلك تركيبة سكانها من مختلف المعطيات الديموغرافية و الاقتصادية والاجتماعية ، وتفاقمت مشاكلها المختلفة و تباين حدوثها مكانيا و زمانيا . وقد اهتم الباحثون بحركة السكان بين مختلف استعمالات الارض الحضرية (التفاعل) ، ودرسوا العمليات التي تؤطر انماط الحركة و تحددها . كما شخصوا أثر استيعاب الانسان و ادراكه للمجال على النمط

المكاني لسلوكه . بعبارة أخرى ، درسوا التباين و التفاعل بمختلف المستويات .

وعند دراسة المشكلات الاجتماعية المختلفة و تباين تكرار حدوثها مكانيا و زمانيا ضمن الرقعة الحضرية فقد أعتمد تفسيرها على التباين المكاني لعدد من المتغيرات العمرانية ، الديموغرافية ، الاقتصادية ، والاجتماعية و تفاعلها مع بعض لنمثل التباينات البيئية . وقد أثمر تباين البيئات ثقافات فرعية (جزر حضارية) ضمن الحضارة الاوسع في المدينة ، ولهذه الثقافات الفرعية دور في تبرير سلوكية أفراد المجموعة و القيم التي يؤمنوا بها ، وبالمحصلة النهائية ، مواقفهم تجاه الآخرين في المجاميع الأخرى و الدولة .

ولما كانت التباينات المكانية حقيقة لا يمكن اغفالها ، فقد أخذت بالحسبان عند رسم السياسات العلاجية و الوقائية للامراض و المشكلات الاجتماعية . لقد اعتمدت التباينات المكانية لرسم السياسات Area based policies في الدول المتقدمة ، فمتى نرى هذا في أقطار وطننا العربي ؟ أليس من واجب الجغرافيين ابراز هذه التباينات من خلال بحوث ميدانية ذات منحى تطبيقي ؟ و التركيز على المشكلات التي تتداخل بها العوامل البشرية و الطبيعية ؟ و التفسير المكاني للتباين في تكرار حدوث الظاهرة او المشكلة قيد الدرس ؟

لعل من أسباب تخلف الجغرافيا في بلداننا تخوف الجغرافيين في الكتابة عن موضوعات تتعلق بالمجتمع و حياته اليومية والمشاكل التي يواجهها ، و تجنب التحليل التقويمي لسياسة الدولة الداخلية ، اولا و التركيز على أحد جوانب الجغرافيا دون النظرة الشمولية (طبيعية وبشرية) ، السمة الاساسية للجغرافيا التي تميزها عن غيرها من العلوم التي ترتبط و تشترك معها في الموضوع و التقنيات . ولا تتغير نظرة الآخرين (من مسؤولين و عامة الناس) الى الجغرافيا و الجغرافيين الا بعد ان يغير الجغرافيون من انفسهم و يخدموا المجتمع بجرأة و صراحة ، و يتمسكوا بجوهر الجغرافيا دون التهات وراء ما أضيف اليها من تقنيات و شكليات . فالاضافات يجب أن تعزز مكانة الجغرافيا لا أن تمسخ شخصيتها و تلغي دورها الريادي في خدمة المجتمع .

أ.د. مضر خليل العمر

قسم الجغرافيا – كلية التربية – جامعة تكريت